

من صحابة الرسول

المجموعة الأولى

٩

البراء بن مالك

نانيس محمد عزت

من صحابة الرسول

المجموعة الأولى ٩

البراء بن مالك

بقلم

نانيس محمد عزت

الناشر

مكتبة مصر

سعيد جلوله السحارز وشركاه
٢ شارع كامل صدقي - العجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

البراء بن مالك

عَمْرُ وَسَيْفٌ شَقِيقَانِ شَقِيَّانِ مُشَاغِبَانِ ، لَا
يَكْفَانِ عَنِ الشَّجَارِ فِيمَا بَيْنَهُمَا ، فَهُمَا
يَتَشَاوِرَانِ لِأَتْفِهِ الْأَسْبَابِ ، فَيَضْرِبُ كُلُّ مَنِهْمَا
الْآخَرَ ، وَيَعْلُو صَوْتَاهُمَا بِالصِّيَاحِ وَالصُّرَاخِ .

وَكَانَتْ أُمُّهُمَا تَكْرَهُ سُلُوكَهُمَا هَذَا ، وَكَثِيرًا
مَا نَبَّهَتْهُمَا إِلَى أَنْ يُحْسِنَ كُلُّ مَنِهْمَا مُعَامَلَتَهُ
لشَقِيقِهِ ، وَلَكِنْ بَلَا فَائِدَةَ .

وَذَاتَ يَوْمٍ قَالَ عُمَرُ لِأُمِّهِ : سَاخِذُ الْكُرَةِ
لَأَلْعَبَ بِهَا مَعَ أَصْحَابِي يَا أُمِّي .

فَهَبَّ سَيْفٌ وَاقِفًا وَقَالَ : لَا ، إِنَّهَا كُرْتِي أَنَا
وَلَنْ تَأْخُذَهَا .

صرخ عُمرُ : ولكنَّ أبى يقولُ إنها كُرتنا نحنُ
الاثنين .

وبدأ صَوَاتُهُمَا يعلوانِ بالصُّراخِ والشَّجارِ .

* * *

وفى هذه الأثناء كان جدُّهما الذى جاء
لزيارتهم ، بالبابِ يدقُّ الجرسَ .

قال : ما هذه الضَّوضاء ؟ إنَّ صَوْتَيْكُمَا
عاليان ، وأنا حزينٌ جدًّا لسلوكِ كلِّ منكما
تجاهَ شقيقه ، فأنتما أسوأَ مثالٍ للأشقاء .

وبعدَ أن دخلَ الجدُّ وجلسَ ، قال : سأحكى
لكما يا ولديَّ قصَّةَ شقيقٍ أحرَقَ يَدَيْهِ كِلَتِيهِمَا ،
وهو يُنقِذُ شقيقه من الأسْرِ والموتِ .

قال عُمرُ مُستغرباً : أحدثَ هذا حقًّا ؟ ومن

هُوَ هَذَا الْفِدَائِيُّ الْجَرِيُّ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ ؟
قَالَ جَدُّهُمَا : إِنَّهُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ ، وَأَخُوهُ
أَنْسُ بْنُ مَالِكٍ .

قَالَ سَيْفٌ : دَرَسْنَا فِي الْمَدْرَسَةِ أَحَادِيثَ نَبَوِيَّةٍ
كَثِيرَةٍ ، رَوَاهَا أَنْسُ بْنُ مَالِكٍ .

قَالَ جَدُّهُ : عَاشَ أَنْسُ بْنُ مَالِكٍ تِسْعًا وَتِسْعِينَ
سَنَةً قَضَاهَا كُلَّهَا فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالْجِهَادِ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ، فَكَانَ مِنْ أَشْهَرِ رُؤَاةِ الْحَدِيثِ ، كَمَا
كَانَ مَوْفُورَ الرِّزْقِ ، كَثِيرَ الْمَالِ ، كَثِيرَ الْأَوْلَادِ .

وَيَرْجِعُ الْفَضْلُ فِي ذَلِكَ إِلَى دُعَاءِ الرَّسُولِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَهُ ، حِينَ أَحَضَرَتْهُ أُمُّهُ
إِلَيْهِ لِيَعْمَلَ عِنْدَهُ ، وَكَانَ عُمُرُهُ آنَذَاكَ عَشْرَ
سَنَوَاتٍ ، فَقَبَّلَهُ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

— بينَ عَيْنَيْهِ ، ودَعَا لَهُ : (اللَّهُمَّ أَكْثَرُ مَا لَهُ
وَوَلَدَهُ ، وَبَارِكْ لَهُ ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ) .
قَالَ سَيْفٌ : وَكَيْفَ أَنْقَذَهُ أَخُوهُ الْبَرَاءُ مِنْ
الْأَسْرِ وَالْمَوْتِ ؟

قَالَ جَدُّهُ : كَانَ الْبَرَاءُ - كَمَا قَالَ شَقِيقُكَ عُمَرُ -
فِدَائِيًّا جَرِيئًا قَضَى حَيَاتَهُ كُلَّهَا يَعْمَلُ جَاهِدًا لَنَيْلِ
شَرَفِ الشَّهَادَةِ ، وَهِيَ الْمَوْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
فَكَانَ فِي مُقَدِّمَةِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، دَائِمًا
مَا يُلْقَى بِنَفْسِهِ فِي الْمَخَاطِرِ طَمَعًا فِي الشَّهَادَةِ ،
وَاللَّحَاقِ بِمَنْ سَبَقُوهُ إِلَيْهَا مِنَ الصَّحَابَةِ الْأَوَائِلِ .

وَكَانَ الْبَرَاءُ شَدِيدَ الثِّقَةِ بِإِكْرَامِ اللَّهِ لَهُ ، فَعِنْدَمَا
مَرِضَ وَزَارَهُ بَعْضُ إِخْوَانِهِ ، وَكَانُوا خَائِفِينَ عَلَيْهِ مِنْ
الْمَوْتِ ، قَالَ لَهُمْ يَا إِمَانِ رَاسِخٍ وَثِقَةٍ فِي فَضْلِ اللَّهِ

عليه : لا والله ، لا يحرمُنِي رَبِّي الشَّهَادَةَ .
وأظهرَ البراءُ في يومِ اليمامةِ بطولةً وفِداءً
عَظِيمين ، فقد خرجَ معَ جيوشِ المُسلمين تحتَ
إمرةِ خالدِ بنِ الوليدِ لِقِتالِ مُسيلمةَ الكذابِ ،
وجُموعِ المرتدِّينَ عنِ الإسلامِ . وحمى القتالُ
واشتدَّ ، فمُسيلمةُ وأعوانه قُوَّةٌ لا يُستهانُ بها ،
فقد كانَ جيشُهم أخطرَ جيوشِ الرِّدَّةِ جميعاً .
قال عُمرُ : ألهذه الدرَّجةِ كانتْ أعدادُ
المرتدِّينَ كبيرةً يا جدِّي ؟

قال جدُّه : دخلَ في الإسلامِ بعدَ فتحِ مكَّةِ
كثيرٌ من ضِعافِ النفوسِ ، أسلمَ بعضهم إمَّا خوفاً
من قُوَّةِ المُسلمينَ وكثرةِ عدَدِهِم ، والبعضُ الآخرُ لم
يَسْتَقِرُّ الإسلامُ في قُلُوبِهِم بعدُ ، فهم

حَدِيثُ عَهْدِ الْإِسْلَامِ . فَلَمَّا مَاتَ الرَّسُولُ — صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — بَدَأَ أَصْحَابُ النُّفُوسِ الضَّعِيفَةِ فِي
الرَّدَّةِ ، أَيْ تَرَكَ الْإِسْلَامَ وَالْعُودَةَ إِلَى الْوَثْنِيَّةِ وَعِبَادَةِ
الْأَصْنَامِ .

سَأَلَ عُمرُ : وَمَاذَا كَانَ مَوْقِفُ الْخُلَفَاءِ
الرَّاشِدِينَ مِنْهُمْ ؟

سَعِدَ الْجَدُّ بِاهْتِمَامِ حَفِيدَيْهِ بِالْقِصَّةِ ، وَقَالَ :
حَرَصَ كُلُّ مَنْ أَبَى بِكَرِ الصَّدِّيقِ وَعُمرَ بْنِ
الْخَطَّابِ عَلَى الْقَضَاءِ عَلَى تِلْكَ الْفِتَّةِ الضَّالَّةِ غَيْرِ
الْمُهْتَدِيَّةِ ، وَهِيَ فِي مَهْدِهَا .

قَالَ سَيفُ : وَكَيْفَ كَانَتْ مَعْرَكَةُ الْيَمَامَةِ
يَا جَدِّي ؟

قَالَ جَدُّهُ : كَانَتْ مَعْرَكَةً عَنِيفَةً جَدًّا ، وَكَانَتْ
جُيُوشُ مُسَيْلِمَةَ عَلَى أَتَمِّ اسْتِعْدَادٍ لَهَا ، حَتَّى

كادوا أن يأخذوا بزمام الأمور ويتقدموا على
المسلمين ، وتحول دفاعهم إلى هجوم . وراح
كل قائد يشجع جنوده على القتال ، وكانت
للبراء بن مالك كلمة سرّت في الجيوش
الإسلامية كالسحر ، فقد قال :

- يا أهل المدينة ، لا مدينة لكم اليوم ، إنما
هو الله والجنة .

قال سيف : وماذا كان يقصد ؟

قال جدّه : ذكرهم البراء أنهم إنما يقاتلون
لنيل الجنة ، لا لنيل الدنيا ، فإنّ تخاذلوا خسروا
الاثنين معا ، خسروا المعركة ، وسقطت المدينة
في يد مسيلمة ، فإما النصر وإما الشهادة . أي
الموت في سبيل الله .

واستجاب الجميع لنداء البراء بن مالك ،

وتحوّلت جيوشُ المسلمين إلى صاعقةٍ أصابتُ
مُسليمةً وجنوده ، وألجأتهم لأن يحتموا بحديقةٍ
كبيرةٍ عاليةٍ الأسوار أغلقوها على أنفسهم ،
وحاصرها المسلمون .

فقال لهم البراء بن مالك ، الباحثُ عن
الشهادة :

- احمِلوني وألقوني عليهم في الحديقة .
كان يريدُ أن يدخلَ الحديقة ، ويفتحَ لهم
أبوابَ الحصن .

ولم ينتظرِ البراء أن يفعلوا ، بل أسرعَ واعتلى
الجدارَ وألقى بنفسه داخلَ الحديقة ، ثم فتحَ بابَ
الحصن لتدخلَ الجيوشُ الإسلامية كالصاعقة ،
تدمّرُ وتهلكُ أخطرَ جيوشِ الرّدة ، أي الرجوع
عن الإسلام .

قال عُمرُ : وماذا حدثَ للبراءِ بنِ مالكٍ ؟
أنالَ الشَّهادةَ كما كانَ يَتمَنَّى ؟

قالَ جَدُّه : لا ، فلم يَحِنْ أَجلُهُ بَعدَ ، ولكن
كانَ من نَصيبِهِ بَضْعًا وَثمانينَ جُرحًا ، ألزَمَتِهِ
الفِراشَ شَهرًا كامِلًا . وقد تولى عِلاجَهُ خالِدُ بنُ
الوَلِيدِ نَفْسَهُ .

فَتَعَجَّبَ عُمرُ وقالَ : قائِدُ الجَيشِ هو الَّذي يُعالِجُهُ !
قالَ جَدُّه : نَعم ، فإنَّ في ذَلكَ نَوعًا من
الشُّكرِ والعِرفانِ بِفَضلِهِ ، فهو الَّذي فَتَحَ بابَ
النَّصرِ لِلمُسلِمينَ .

وبَعدَ أنَ شَفِيَ البراءُ ، خَرَجَ يَبْحَثُ عَن غايَتِهِ
الَّتِي يَسعى لَها وَهيَ الشَّهادةُ ، خَرَجَ مَعَ الجُيُوشِ
الْمُتَّجِهَةِ لِحَربِ الفُرسِ والرُّومِ ، وكانَ بائِعًا نَفْسَهُ
عَلى الدَّوامِ لِلَّهِ ، طالِبًا الشَّهادةَ لِنَفْسِهِ .

ففى إحدَى الحُرُوبِ مع الفُرس ، لَجَأَ الفُرسُ
إلى حِيلَةٍ بَشِيعَةٍ لِقَتْلِ المُسْلِمِينَ أو أَسْرِهِم ، فَقَدْ
اسْتَحْدَمُوا كَلَالِيبَ (خَطَاطِيفَ) وَضَعُوهَا فى
نِهَايَةِ سَلَاسِلِ مُحَمَّاةٍ بِالنَّارِ ، وَأَلْقَوْا بِهَا مِنْ
حُصُونِهِمْ عَلَى المُسْلِمِينَ ، فَمَنْ مَسَّهُ كُلابٌ مِنْ
تِلْكَ الكَلَالِيبِ فَلَا فِرَارَ لَهُ مِنْهُ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ
يُخَلِّصَ نَفْسَهُ مِنْ شِدَّةِ سُخُونَةِ السَّلْسِلَةِ .

وَتَشَاءُ الْأَقْدَارُ أَنْ يَسْقُطَ كُلابٌ مِنْ تِلْكَ
الْكَلَالِيبِ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - أَخَى الْبَرَاءِ -
وَرَأَى الْبَرَاءُ أَخَاهُ وَهُوَ يَصْعَدُ إِلَى أَعْلَى الْحِصْنِ عَاجِزًا
أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ ، فَالسَّلْسِلَةُ تَتَوَهَّجُ لَهُبًا وَنَارًا .

وَأَسْرَعَ الْبَرَاءُ وَانْقَضَ عَلَى السَّلْسِلَةِ بِكِلْتَا
يَدَيْهِ ، غَيْرَ مُهْتَمٍّ بِمَا قَدْ يَصِيبُهُ ، وَعَمِلَ بِكُلِّ

ما وَسِعَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَعِزِّ عَلَى تَخْلِيصِ أَخِيهِ .

قَالَ سَيْفٌ مَشَدُّوْهَا : أَيْنَجَحُ فِي ذَلِكَ ؟

قَالَ جَدُّهُ : نَعَمْ ، لَقَدْ نَجَحَ الْبَرَاءُ فِي إِنْقَاذِ أَخِيهِ .

وَتَسَاءَلَ عُمَرُ : وَيَدَاهُ مَاذَا أَصَابَهُمَا ؟

قَالَ جَدُّهُ : نَظَرَ الْبَرَاءُ وَمِنْ مَعَهُ إِلَى يَدَيْهِ ، فَلَمْ

يَرَوْا سِوَى هَيْكَلٍ عَظْمِيٍّ مُحْتَرَقٍ .

سَأَلَ عُمَرُ : وَأَيْنَ ذَهَبَ الْجِلْدُ وَاللَّحْمُ ؟

قَالَ جَدُّهُ : احْتَرَقَا تَمَامًا حَتَّى تَلَا شَيْئًا مِنْ شِدَّةِ

تَوْهُجِ السَّلْسِلَةِ .

وَقَضَى الْبَرَاءُ فِتْرَةَ عِلَاجٍ أُخْرَى طَوِيلَةً ، حَتَّى

شَفِيَتْ يَدَاهُ وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُشَارِكَ مِنْ جَدِيدٍ فِي

الْحُرُوبِ طَلِبًا لِلشَّهَادَةِ ، وَالْمَوْتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

قال سيف : ألهذه الدرجة كان يحبُّ أخاه ؟
لقد عانى آلامًا كثيرة حتى برئت يداه .
قال جدُّه : نعم ، فقد كانا أخوين يجمعُ
بينهما الحبُّ والإيمان ، ثم إنَّ هذا هو السلوكُ
الطبيعيُّ المفروضُ بين الإخوة بعضهم وبعض ،
فلم يفكر البراءُ في شيءٍ سوى في إنقاذ أخيه
من الأسر أو الموت .

* * *

إلى أن حانت اللحظة التي طالما تمنّاها البراء ،
لحظة الشهادة في سبيل الله ، فقد خرج البراءُ
لحرب الأهواز — إقليم خاضع للفرس — في
معركة تُسمى « تستر » .
وبدأت المعركة بالمبارزة ، فقتل البراء وحده

مِائَةَ مُبَارِزٍ مِنَ الْفُرْسِ .

وطلبَ بعضُ الصَّحَابَةِ مِنَ الْبَرَاءِ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ
لَهُمْ بِالنَّصْرِ ، فَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - : (رَبُّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمَرَيْنِ ، أَيْ
ثَوْبَيْنِ بَالَيْنِ ، لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ
لَأَبْرَهُ ، مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ) .

فَقَالَ الْبَرَاءُ دَاعِيَا : اللَّهُمَّ امْنَحْنَا أَكْثَافَهُمْ ، اللَّهُمَّ
اهْزِمْهُمْ وَاَنْصُرْنَا عَلَيْهِمْ ، وَأَلْحِقْنِي الْيَوْمَ بِنَبِيِّكَ) .

قَالَ عُمَرُ : وَمَنْحَهُ اللَّهُ شَرَفَ الشَّهَادَةِ ؟

قَالَ جَدُّهُ : نَعَمْ ، فَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى لِدُعَائِهِ ، وَانْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ نَصْرًا مُبِينًا ،
وَكَانَتْ لَهُ الشَّهَادَةُ الَّتِي طَالَمَا تَمَنَّاها وَطَلَبَهَا .

قال عُمر : أنتَ على حقٍّ يا جدِّي ، فسَلُّوكُنَا
أنا وسَيْفٌ ، يَبْعَثُ على الخَجَلِ .

قال سَيْفٌ : فِعْلا يَبْعَثُ على الخَجَلِ ، ونحنُ
مُتَأَسِّفَانِ ، وَنَعِدُكَ يا جدِّي أنْ تَكُونَ عَلاقَتُنَا
أَحَدِنَا بِالْآخِرِ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ .

قال جَدُّهُمَا : هَذَا جَمِيلٌ ، فَقَدْ اسْتَفَدْتُمَا مِنْ
الْقِصَّةِ ، وَأَرْجُو أَنْ تَسْتَمِرَّا على حُسْنِ الْخُلُقِ
وَحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ فِيمَا بَيْنَكُمَا .

قال سَيْفٌ : هَيَّا يا عُمرُ ، هَيَّا لِنَلْعَبَ بِالْكُرَّةِ
مَعًا فِي الْحَدِيقَةِ .